



خطبة صلاة الجمعة 19 / 4 / 2024 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(أهمية الأسرة في الإسلام)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلَيْسَ بِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: 72].

وقال سبحانه في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيًّا تَابًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيته، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته»، قال: فسمعت هؤلاء من رسول الله ﷺ، وأحسب النبي ﷺ قال: «والرجل في مال أبيه راع وهو مسئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته».

وأخرج الإمام الترمذي عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي».

أيها الإخوة:

هذه سلسلة جديدة من الخطب عنوانها (الحياة الأسرية) تتحدث عن أهمية الأسرة وقيمتها وطريقة بنائها في الإسلام وحقوق وواجبات أفرادها وخطط أعداء الإنسان في هدمها وطرق حمايتها.

عنوان خطبة اليوم:

أهمية الأسرة في الإسلام

أضفى الإسلام القداسة على العلاقات الأسرية، فجعل عقد الزواج العقد الذي تتأسس به نواة الأسرة ميثاقاً غليظاً جامعاً لقيم المودة والرحمة والسكن والسكينة، وجعل رعاية كل من الزوجين لصاحبه طاعةً لله تعالى وقربى، وشدَّ أواصر الرّحم بالبر والصلة، ولم يحظ نظام اجتماعي بالعناية والتفصيل في القرآن الكريم والسنة المطهرة والفقه الإسلامي يمثل ما حظيت به الأسرة في كل شؤونها، وتتناول خطبة اليوم حديثاً عن الأسرة في القرآن الكريم والسنة المطهرة والفقه الإسلامي لترسم صورة في عقل مستمعها وقلبه عن أهمية الأسرة في الإسلام؛ ليحافظ كلٌّ منا على أسرته، ولندعم الأسر القائمة والقادمة.

أما القرآن الكريم: فقد ورد الحديث عن الأسرة في القرآن الكريم في (146) آية، تحدثت هذه الآيات عن الزواج والصدّق والحمل والإرضاع والطلاق والخلع والظهار والإيلاء والعِدَد والنفقات وحقوق الزوجين وحقوق الوالدين وصلة الأرحام... وغيرها من المواضيع الكثيرة المتعلقة بالأسرة. ثم إن هناك سوراً في القرآن الكريم حملت عناوين الزواج والأسرة، أو كانت مواضيعها الأساسية تدور على الزواج والأسرة؛ فسورة (آل عمران) عنوانها يحكي أسرة عمران والد السيدة مريم أم عيسى عليهما السلام، وفيها قصة هذه الأسرة وإعداد مريم التي نذرت أمها للعبادة، وسورة "الطلاق" واضحة الدلالة على علاقتها بالأسرة، وسورة "النساء" فيها الكثير من أحكام الأسرة، ومعروفة قصة البقرة في سورة "البقرة" كيف كانت لابن بارٍّ بوالدته، و"المجادلة" زوجة تنافح عن حقّها في زوجها الذي ظاهّر منها ظلماً.

ونلاحظ في القرآن الكريم حديثاً عن أسر ناجحةٍ وأسّر مفككة، وأزواج خيرين وأزواج مسيئين؛ فهذه أسرة سيدنا إبراهيم الناجحة، ولدٌ بارٌّ بأبيه يُسلم نفسه للذبح بين يديه، وزوجة رضية، وزوج هو أبو الأنبياء.

وهذه أسرة لقمان الحكيم؛ أبٌ يعِظ ولده ولا يَدخِر جهداً في وعظه ونصحه.

بينما زوجة لوط تخالف زوجها المشرب، ويترفع ابن نوح عن صحبة أبيه في مركب النجاة فيكون من الهالكين.

كل هذا وغيره جاء في القرآن الكريم ليدل على أهمية الأسرة في الإسلام.

وأما الحديث الشريف: فقد ورد ذكر الأسرة فيه مرات أعياي إحصاؤها تعد الألف، ومن هذه الأحاديث: ما أخرجه الترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها: قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّ امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا رَاضٍ عَنْهَا، دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ».

وما أخرجه الطبراني عن النبي ﷺ قال: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِنِسَائِكُمْ فِي الْجَنَّةِ؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «كُلُّ وَدُودٍ وَلُودٍ إِذَا غَضِبَتْ أَوْ أَسِئَ إِلَيْهَا أَوْ غَضِبَ زَوْجُهَا قَالَتْ: هَذِهِ يَدِي فِي يَدِكَ، لَا أَكْتَحِلُ بَغْمُضٍ حَتَّى تَرْضَى» [المعجم الأوسط].

وما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسُطَّ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يَنْسَأَ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

في ألوف الأحاديث المتحدثة عن الأسرة الدالة بمجموعها على أهمية الأسرة في الإسلام، ثم إننا نلاحظ في سيرة النبي ﷺ جانباً كبيراً من الحديث عن أسرة رسول الله ﷺ، عن زوجاته الكريمات، وأبنائه وبناته، ووالديه من الرضاع وإخوته وأخواته.

هذه الأحاديث النبوية الكثيرة وهذه السيرة المطهرة تدعونا لدعم الأسرة وتؤكد أهمية الأسرة في الإسلام.

وأما الفقه الإسلامي: فتحل أحكام الأسرة مُمَّسَّه على التقريب؛ فيما يسمَّى (الأحوال الشخصية). فأبواب الفقه الكبيرة خمسة: (العبادات - المعاملات - الأحوال الشخصية - القضاء - السياسة الشرعية).

والجدير بالذكر أَنَّ الفقه الإسلامي عندما تكلم عن الأحوال الشخصية (الأسرة) تكلم عن أحكامها بتفصيل وإسهاب.

وإليكم نموذجاً لحديث أهل الفقه الإسلامي عن الأسرة، فقد جاء في كتاب الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي - وهو كتاب معاصر في الفقه مؤلف من ثماني مجلدات في طبعته الأولى -، الحديث عن الأحوال الشخصية (الأسرة) في مجلتيه، بمجموع قدره (1315) صحيفة.

وتحدّث البحث عن الأسرة من خلال ستة أبواب:

الباب الأوّل: الزّواج وآثاره، وفيه سبعة فصول، تحتها (19) بحثاً، ضمنها (80) فرعاً.

الباب الثّاني: انحلال الزّواج وآثاره، وفيه فصول (4) عن الطلاق والخُلْع والتفريق القضائي والعدة، تحتها (26) مبحثاً، ضمنها (60) فرعاً.

الباب الثّالث: حقوق الأولاد من نسبٍ ورضاعٍ وحضانةٍ وولايةٍ ونفقات الزوجة والأقارب، وفيه فصول (5)، تحتها (15) بحثاً، ضمنها (75) فرعاً.

الباب الرّابع: الوصايا، وفيه (3) فصول، تحتها (10) مباحث، ضمنها (45) فرعاً.

الباب الخامس: الوقف، وفيه فصول (10)، تحتها (16) فرعاً.

الباب السادس: الميراث، وفيه (19) فصلاً، ضمنها (80) فرعاً.

فنظام الأسرة في الشريعة الإسلامية نظامٌ متكاملٌ محكم، له من الأحكام والقوانين ما يرافق المرء من المهد إلى اللحد، بل له من القواعد ما تُطبّق على الإنسان قبل ولادته وهو جنين، إلى ما بعد وفاته كالوصية والإرث.

من هنا، لم يستطع الاستعمار القديم لَمّا دخل بلاد العرب والمسلمين أن يترك لنا قوانينه الوضعية فيما يتعلق بالأسرة؛ لأنّه لا يملك عِشْرَ مِئْثَارٍ ما وجده في قوانين الشريعة الإسلامية.

ولا تزال القوانين المعمول بها في البلاد العربية والإسلامية إلى اليوم فيما يتعلق بالأحوال الشخصية مستمدةً من الشريعة الإسلامية -ولله الحمد-، وإن كان هناك هجوم عليها من أعداء المسلمين.

أيها الإخوة:

لما كانت الأسرة قوة الفرد وحصن المجتمع وجّه أعداء الإسلام بل أعداء الإنسان سهامهم إلى الأسرة، ليهدموا بنيانها ويقوضوا أركانها ويفرقوا أفرادها، ذلك لأنّ الدول ترقى وتنحط بقدر ما تكون الأسرة فيها قوية أو ضعيفة.

فتارة يوجه أعداء الإنسان سهامهم إلى الفتاة لينفروها من الزواج، وليوغروا صدرها بالعداء بينها وبين الرجل، ولينفخوا فيها بكل بوق هدام لتنازع الرجل أعماله وأقواله ومسؤولياته، ولتجابه بكل قوتها المجتمع الذكوري الظالم، على ما يصفون!!

وتارة يتوجهون إلى الشاب ليشنوه عن تحمل مسؤولية الزواج والأسرة، وليضعوا في طريق زواجه العراقيل ويرجفوا حوله الأراجيف.

وتارة يتوجهون للمجتمعات ليضرموا فيها نار الشهوات وحمأة الفتن، فملبوسات فاضحة وصور ماجنة وأفلام ساقطة وأغان هابطة ومواقع فاسدة..؛ كلها لاستهداف الأسرة بشكل مباشر وغير مباشر، هذا فضلاً عن اتفاقات دولية يعنى أعداء الأسرة والعفة والفضيلة والإنسان في أول ما يعتنون به بهدم كل رباط زوجي ودعم كل علاقة خارج نطاق الزواج الشرعي.

فاتفاقية سيداو لمناهضة كافة أشكال التمييز ضد المرأة على سبيل المثال تدعو في المادة (16) منها لمفردات تجتمع مع بعضها لنقض عرى الزوجية وهدم الأسرة: فالقوامة مشتركة ولا ولاية للأب على بناته والإرث بالتساوي، ولا تكلف زوجاً بالنفقة على زوجته ولا تترك له أمراً في سفرها ولا حضرها ولا سكنها معه في البيت أو في بيت غيره إن شاءت!!

ومؤتمر بكّين للمرأة والسكان يشرعن المساكنة والشذوذ والعلاقات غير الشرعية، ويدعو إلى الفوضى بشكل أو بآخر في العلاقات بين الرجال والنساء.

إنَّ استهداف الأسرة يصرخ بنا لتمسك بتعاليم ديننا للحفاظ على الأسرة وللحديث طويلاً عن الحياة الأسرية ولهذا جاءت هذه السلسلة من الخطب (الحياة الأسرية).

أيها الإخوة:

هذه الأهمية الكبيرة للأسرة في الإسلام، وهذه النصوص الكثيرة في القرآن والسنة والفقه تجعلنا نعتقد أن الزواج عبادة، وأن الحفاظ على الأسرة دين، وأن دعم الأسر القائمة والقادمة صدقة جارية.

والحمد لله رب العالمين